قصّة قصيرة

امرأة تتوسّل الزمن

رشيدة الشارني

(١)

أفاقتْ وليس في الحيّ صوت سوى أذان الفجر. أخذتْ تتهيّأ للسّفر وفي حركاتها حرصٌ كبير على الهدوء. سمعتْ حركة انفتاح باب الغرفة المجاورة ثمّ وقعَ أقدامِ أبيها البطيئة.. ارتجفتْ وأحسّتْ بانقباضٍ شديد يغزو فرحتها.

خَفتَ ضجيجُ الأقدام وغاب في دورة المياه. تسلّلتْ بعد لحظات قليلة نحو الباب الخارجيّ، اعتقدتْ أنّه مازال منهمكاً في الوضوء، لكنَّ صوته المدوّي جأر في فضاء الدّار فسمَّرَ حركاتها:

- إلى أين تخرجين في هذا الظّلام؟

طارت اللّغة ولم تجد للردّ غير عباراتٍ مفكّكة:

- ألم.. ألم أقل.. إني..

- ماذا قلت؟ أنا دائماً آخر من يعلم الحقائق في هذه الدّار.

لملمتْ بعض شجاعتها وأجابت بصوت مرتجف:

- بلى لقد أريتُكَ الاستدعاءَ الذي وُجّه لي للمشاركة بلقاء ثقافي.

- لقاء ثقافي؟ هذا كلام فارغ وحيلة لا أقبل بها.

قالتْ بنبرةٍ فيها الكثيرُ من الرّجاء:

- ولكن يا أبي أنا أريد أن أحضره. ثمّ إني كبرت وصرتُ أدرك جيّداً ما أفعله.

صاح بصوتٍ مشحون بالغضب:

- مهما كان شأنك فإنّك لن تكبري أمامي. اسمعي، هذا البيت ليس فندقاً تغادرينه إلى أين تشائين وتأتين إليه متى تشائين. فإمّا أن تعقلي وإما أن أسحقك كحشرة.

(٢)

صفعتني صرامة موقفه وأعاق غضبُه البربريّ لساني عن الردّ. انزويتُ في ركنٍ من الغرفة التي أتقاسمها مع أربع أخوات... كان الكلام يتناثر من فمه كالجمر وكانت دمائي براكينَ تغلي.

إلى متى أظلُّ حبيسةَ غرفةٍ صرتُ أرى جدرانَها قبراً؟ إلى متى يظلّون يرسمون خارطة تنقّلاتي ويتصرّفون بلحظات عمري؟.. هم يعتقدون أن خروجي للعمل وتسكّعي بعض الوقت في المدينة الغارقة في الرطوبة والوحشة كافيان لترويض أنفاسي. ولكن صدرَ الشارع البارد يلفُّني بغضبه المكبوت فيصرع أوهامَ الطمأنينة في نفسي ويزيد أحزاني شراسةً. إنّهم لا يدركون حجمَ الإرهاق الذي يصيبني من عملي. كلّ يوم تتقاذفني كرّاسات واختبارات وبحوث للإصلاح وتوهن ساعدي كتاباتٌ كثيرة على السّبورة وتورّم ساقيَّ ساعات وقوفٍ طويلةٌ أقضيها متنقّلة بين صفوف التلاميذ، وعندما أطلبُ النّوم كثيراً ما تلاحقني أصواتهم حتى الوسادة، فيقفز النّوم مغادراً وأشعر بالرّغبة في أن أُطلقَ العنان لصوتي بالصّراخ، أن ألقي بحذائي على كلّ الوجوه المقنّعة بالدّهشة، وأعدوَ حافيةً منفوشةَ الشّعر مولولةً في الحقول البيضاء. ولكن شيئاً في داخلي يكبّل حركاتي ويقمع صوتي فاختبئ في صمتي وألمح في السّماء قوافل السحب تمرّ بي وتقهقه.

(٣)

تمسكتْ بصوتها الدّاخليّ وخرجتْ.

بالحافلة، كان البعض يطالع الصّحف والبعض الآخر يروي نوادر عن زعماء وملوك وأمراء عرب، وجماعة أخرى تتحدّث عن زيارات المتفقّدين وسعي النّقابة للمطالبة بالزيادة في الأجُور والتّخفيض في ساعات العمل...

في ركن منها كانت مسحورة بالدّهشة وهي تتابع بنظراتها غاباتِ الزيتونِ الممتدةَ والبنايات الفخمة وتترصّد الشّمس التي تخفيها من حين لآخر غيومٌ بيضاءُ مسافرةٌ عبر السّماء كأنّها تتمتّع بوجودها الجميل في كوكبٍ بديع تطأه قدماها.

(٤)

تساءلتُ: أيكون الوجودُ رائعاً إلى هذا الحدّ وأنا لا أدري؟

أيكون وطني أخضرَ وساحراً بهذا الشّكل وأنا مدفونة في زقاقٍ ضيّقٍ منه ينتابني الضّجر ويملؤني فراغ رهيب؟

ثلاثون عاماً وأنا أعيشُ في وطنٍ لا أعرف منه سوى بَرْدِ «تالة» وعجاج «الكاف» العالي.

ثلاثون عاماً كنت أسير فيها نحو العدم، وكان الوجهُ الآخر فيّ يأكلني حتّى كاد يلتهم العقل.

سنوات مختنقة تمضي من عمري المهدور وتأخذ معها أحلاماً حبكتها في زمن مغفّل.

تفيق أكثر الفتيات في سنّي وفي مخيّلاتهن طيفُ رجلٍ وإشكاليةُ لباسهن وتسريحةُ شعورهنّ، وأنا أفتح عينيّ وفي رأسي فواتيرُ الماء والكهرباء ومبلغ الإيجار ومنظر أخي المرتجف برداً وهو يدوس الثلج بحذاء لم يعدْ يصلح حتّى للرّتق.

(٥)

توقّفتِ الحافلةُ قرب مبيت للطّلبة. وضعتْ حقيبَتَها الصّغيرة بالغرفة الواسعة التي وجهها إليها بعض المسؤولين، ثمّ جلستْ إلى المرآة تتفرّس صورَتها المنعكسة عليها ويملامحها دهشةُ من يرى وجهاً غريباً.

اكتشفت برغمِ الشعيراتِ البيضاء التي نبتتْ على مقدّمةِ رأسها أنّها صارت تبدو أكثر سحراً وجمالاً من سنوات عمرها الماضية.

(٦)

في أيّ زمن غزاني الشيب؟
وأين تساقطتْ أجملُ سنوات عمري؟
ولماذا أسقطتُ الرّجلَ من حسابي؟
ولماذا أُثقلتِ الابتسامةُ؟

اغتسلتْ من كآبتها ونزلتْ إلى قاعة تُقام بها الأنشطة عادة. كان أحد الأساتذة قد بدأ موضوعاً حول تدريس التربية التقنية بالمدرسة الأساسية، وكان المربّون يناقشون بحدّة وبشكل تخيّلتْ معه أنّ الأمر قد تحوّل إلى خصومة حقيقيّة.

أصابها هديرُ أصواتهم بالضجر. جثم المللُ على أنفاسها. حاولتْ أن تتمسّك بالبقاء، لكن طرقاً عنيفاً بدأ يقرع رأسها من أعلى فتركت القاعةَ وخرجت.

(٨)

كيف يمكن أن تكون كلُّ الأشياء في وقت واحد؟
وهل نستطيع أن نكون شيئاً كبيراً بوسائلنا الفقيرة؟
وقبْلَ كلّ شيء ما علاقتي بكل هذا؟

أنا ما تخيّلتُ يوماً أن أقف لحظةً أمام أربعين طفلاً جمّد البرد أصابعهم ونهش الجوعُ أمعاءَ أكثرهم وأكون مسؤولة عن تربيتهم وتعليمهم، ولم أتصوّرْ لحظة أن أقف حائرة بين بعض الأشقياء من الأطفال ومكرهم الأبيض. ولكنّ طلبات أسرة تُريد أن تقفز من فقرها يبّسني بالعمل. وكانت الجامعة حلماً بدأ يتلاشى بريقُهُ يوماً بعد يوم.

(٩)

بدأت شوارع «المنستير» العريضة تخلو من النّاس، ولكن الظّلام صادر حزنَها فتواترتْ خطاها بين أرصفة نظيفة على حافتها نخيلٌ قصيرٌ ومن أعمدتها الكهربائية المنتشرة بسخاء شديد يشعّ ضوءٌ أرجواني زاد المدينة بهاءً.

كانت تسير بخطى ثابتة ترفعها ساقان نحيفتان كساقيْ مهرةٍ تجرّب الرّكض في ليلة يستنكر بردَها كلُّ النّاس.

أثملتها حبّاتُ المطر التي بدأت تنقرُ وجهها. واصلتِ المشيَ وبرأسها تلتهب أفكارٌ حزينة امتصّ الطريق الطّويل الكثيرَ منها.

(١٠)

أيّتها الأمطار! اهطلي واغسليني من آثار التحنيط. فما ألذّ طعمك المشحون بالصّحو في فمي!

اهطلي واغسلي عنّي سَذاجتي حتى أبصرَ العالمَ بوضوح أكثر. وأنت أيها الزمن! أعِدْني إلى دائرتك وامنَحْني ثقتك أنا المرأةَ الضالّةَ بين ركام سنواتك.

تونس ـ ١٩٩٢